مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد11/ العدد: 01 (2023)، ص:110-120

حوارات ما بعد الكولونيالية المتعارضة: بين التأسيس لمنهج أو الاكتفاء بالنظرية

Conflicting Postcolonial Dialogues: Between the Establishment of a Method or the Sufficiency of Theory

سوسن ابرادشة[1]

[1] جامعة أبو القاسم سعد الله . الجزائر 2 .

soucene.bradcha@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2022/12/22 تاريخ القبول: 2023/02/13 تاريخ النشر: 2023/03/05

ملخص:

شهدت الساحة النقدية في الفترة الأخيرة ظهورا واسعا لمجموعة من النظريات والدراسات والمناهج، التي راحت تؤسس لوجودها الفعلي وتطالب باستقلاليتها كمناهج نقدية أو كنظريات مكتملة النضوج، وعلى غرار التعارض الحاصل بين الدراسات الثقافية والمنهج النقدي الثقافي، أو السرديات النسوية والنقد النسوي، بدا للدارسين والمهتمين أنّ الدراسات ما بعد الكولونيالية باتت هي الأخرى محل جدال بين اكتفاء فئة من روادها بالتنظير وتوسّمها بذلك، وبين محاولة الفئة الأخرى تأسيس منهج نقدي قائم بذاته، يسعى لرسم خطواته المنهجية للمقاربة الثقافية، ويكشف عن إستراتجيته في استنطاق النصوص وتفكيكها، وتطبيق آلياته وتحديد مفاهيمه.

وفي خضم هذه التعارضات، تسعى دراساتنا للكشف عن حدود ومعالم الدراسات ما بعد الكولونيالية والتأطير لها، من أجل محاولة الفصل في ماهيتها، والإقرار بشرعيتها المنهجية النقدية أو التأسيسية النظرية.

كلمات مفتاحية: ما بعد الكولونيالية، منهج، نظرية، دراسات، نقد.

Abstract:

In the recent period, the critical arena has witnessed a wide emergence of a group of theories, studies, and curricula, which have begun to establish their actual existence and demand their independence as critical approaches or as fully-mature theories. Similar to the conflict between cultural studies and the cultural critical approach, or feminist narratives and feminist criticism, it seemed to scholars and those interested that the studies Post-colonialism has also become a subject of controversy between a group of its pioneers being satisfied with theorizing and characterized by it, and the other group's attempt to establish a critical approach in its own right, which seeks to draw its methodological steps for the cultural approach, and reveals its strategy in interrogating and deconstructing texts, applying its mechanisms and defining its concepts.

Our studies seek to reveal the boundaries and features of post-colonial studies and frame them, in order to try to separate their essence, and to acknowledge their methodological, critical or theoretical foundational legitimacy.

Keywords: Post colonialism, method, theory, studies, criticism.

***المؤلف المرسل:** سوسن ابرادشة

1. مقدمة

عجّت الساحة النقدية الحديثة بكثير من المرجعيات النقدية والرؤى الفكرية التي راحت تؤسس لنظريات مختلفة، وتدعو لإعادة قراءة التراث وتفكيك خطاباته، من أجل الكشف عن زيف التاريخ ومعالجة الأخطاء الشائعة التي باتت أمثلةً وحِكمًا يُعتَّد بها، رغم ما لها من سلبيات وما عليها من زلات، ولعل "دراسات ما بعد الكولونيالية" أهم نظرية معرفية شقَّت طريقها من أجل فضح الخطابات الاستعمارية وتعرية أنساقها الأيديولوجية والثقافية، وذلك بعد أن انتبه المفكر والكاتب الفلسطيني المولد والأمريكي الجنسية إدوارد سعيد Edward Said إلى نقطة مهمة تدور حول العلاقات التي تجمع بين المستعمَر

والمستعمِر، والمبادئ والأنظمة التي تُسيّر هذه العلاقات، وتؤسس لنوعية مفصلية في تأريخ الخطابات الأيديولوجية وغيرها؛ فراح يدقق في المرجعيات والمنطلقات التي عملت على توسيع فكرة الدراسات ما بعد الكولونيالية من خلال اعتماده على أفكار ومقولات نبي العالم الثالث، الكاتب المارتينيكي فرانز فانون Frantz Fanon الذي جعله ملهمه الأول ومؤسس نظرية ما بعد الكولونيالية.

وقبل البدء في تفصيل الحديث حول مفهوم الخطاب ما بعد الكولونيالي وماهيته، ومسارات تشكُّله وتشكّيله، آثرنا البحث حول إشكالية هامة قائمة على تساؤل يدور حول كون "الخطاب ما بعد الكولونيالي" نظرية مستقلة قائمة بذاتها ، أم أنّه مجرد دراسات تضم مجموعة من الإجراءات النقدية والمقاربات التفكيكية والتأويلية التي تُخضِع النصوص الأدبية لها، ضمن ما يسنح به نطاق المنهج النقدي الذي يعتمده الباحث أو الدارس !

ونظرًا لِما يملأ الفضاء النقدي بمصطلحات متداخلة ومتشعبة، تحوم جميعها حول فكرة واحدة غير بديلة، من مثل: "الأدب ما بعد الكولونيالي"، و"الخطاب ما بعد الكولونيالي"، و"النظرية ما بعد الكولونيالية"، و"الدراسات ما بعد الكولونيالية"، و"النقد ما بعد الكولونيالي"، وغير ذلك مما يجعل صفة "ما بعد الكولونيالية" لصيقة بها، فإننا سنعتمد على مصطلحي "الدراسات ما بعد الكولونيالية" و"النظرية ما بعد الكولونيالية" لجعلهما كلمات مفاتيح من أجل ولوج هذه الدراسة.

2. ما بعد الكولونيالية / تحديد مصطلحي وحجج الوجود:

يُنظر إلى "حقل الدراسة المسمى بالنظرية ما بعد الكولونيالية، أو الدراسات ما بعد الكولونيالية على أنه جزء من حقل النظرية الثقافية أو الدراسات الثقافية متعدد الفروع الذي يعتمد على الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع،

ودراسات الجنوسة، والدراسات الإثنية، والنقد الأدبي، والتاريخ، والتحليل النفسي، وعلم السياسة، والفلسفة في تفحصه النصوص والممارسات الثقافية المختلفة." (روبنسون، 2005، صفحة 27)

فالمقصود بالدراسات ما بعد الكولونيالية / الاستعمارية أنّها تلك "الدراسات التي تبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمرا، وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار، مع ما تضمنته تلك الدراسات من تحليل للنصوص الأدبية وغيرها، للكشف عن إستراتيجيتها الخطابية." (بعلي، 2007، صفحة 74)

هذا ما يجعل من حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية حقلا معرفيا واسعا، "وبصيغة أخرى فالدراسات ما بعد الكولونيالية هي دراسة كلية للنصوص ـ بالمعنى الشامل لكلمة نص ـ التي تساهم أو ساهمت في السيطرة على الحضارات والثقافات الأخرى، وكذلك النصوص التي أتت أو تأتي ردا على تلك النصوص، بهدف تصحيح أو تصويب ما تحاوله النصوص المسيطرة المتمثلة في الخطاب الغربي." (سليمان، 2004، صفحة 87)

لذلك نرى أنّ مصطلح نظرية ما بعد الكولونيالية يحاول في كل مرة التمدد من أجل استيعاب وشمل كل ما يتعلق بآداب وثقافات الشعوب المستعمَرة، والمهمشة، والمسلوب حقوقها بالغصب والقوة، وخاصة في المجتمعات التي عرفت أنواع متنوعة ومتعددة من الاستعمارات، على اختلاف أشكال الاستعمار وأنماطه التي يغزو بها الطرف الآخر.

وقد تبلورت الفكرة الرئيسة لدراسات ما بعد الكولونيالية منذ سبعينات القرن الماضي، بعد أن التف الكاتب والناقد "إدوارد سعيد" ولفَّ حول دراساته وأفكاره دراسات سابقة لمجموعة من الكتاب والمفكرين الذين راحوا يؤسسون لحقل معرفي جديد، يهدف إلى التركيز على آداب الشعوب المستعمَرَة، ويفكك

الخطابات التي تناولت ردّ الهامش على السلطة، أو ردود أفعال الفئات الضعيفة على الجانب الأقوى، وهي العلاقة التي يمثلها (المستعمِر/ المستعمَر).

فأساس الخطاب ما بعد الكولونيالي إذن، ينطلق من هذه الثنائية وما يجمعهما من علاقات ومبادئ ، تتم ترجمتها من طرف الكتاب والدارسين والمهتمين إلى شكليات ورؤى مختلفة.

بينما تُوجهنا صيغة (ما بعد الكولونيالية) إلى مسارات متشعبة لا يمكننا الجزم من خلالها بتحديد كرنولوجي مؤكد يمكننا اعتماده، إنّما مجرد محاولات لمهتمين وباحثين سعّوا إلى تحديد مفهوم عام للدّراسات ما بعد الكولونيالية، وهو ما قام به الباحث "دوغلاس روبنسون" الذي حاول وضع مجموعة من المفاهيم التي يوضح من خلالها مراحل تطور الدراسات ما بعد الكولونيالية حسب الفترة الزمنية التي تغطي كل مرحلة، والفروق التي تميز كل مرحلة عن الأخرى، وبذلك ربط كل مرحلة بمفهوم خاص بها، فجاءت التعريفات متشابكة ومتداخلة، وهي كالآتي:

1. "دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استقلالها: أي كيف استجابت لإرث الكولونيالية الثقافي، أو تكيفت معه، أو قاومته، أو تغلّبت عليه خلال الاستقلال، وهنا تشير الصفة" ما بعد الكولونيالية "إلى ثقافات ما بعد نهابة الكولونيالية، والفترة التاريخية التي تغطيها هي تقريبا النصف الثاني من القرن العشرين.

2. دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استعمارها، أي الكيفية التي استجابت بها لإرث الكولونيالية الثقافي، أو تكيفت معه أو قاومته، أو تغلّبت عليه منذ بداية الكولونيالية، وهنا تشير الصفة ما بعد الكولونيالية إلى ثقافات ما بعد بداية الكولونيالية والفترة التاريخية التي تغطيها هي تقريبا الفترة الحديثة، بدءا من القرن السادس عشر.

3. دراسة جميع الثقافات (المجتمعات /البلدان /الأمم) من حيث علاقات القوة التي تربطها بسواها من الثقافات (المجتمعات /البلدان /الأمم)؛ أي الكيفية التي أخضعت الثقافات الفاتحة الثقافات المفتوحة لذلك القسر، أو تكيفت معه، أو قاومته، أو تغلّبت عليه، وهنا تشير الصفة ما بعد الكولونيالية إلى نظرتنا في أواخر القرن العشرين إلى علاقات القوة السياسية والثقافية، أما الفترة التاريخية التي تغطيها فهي التاريخ كله" (روبنسون، 2005، صفحة 28).

والظاهر أنّ هذه المفاهيم لم تكن واضحة بشكل كبير حتى يتسنى للمتلقي / القارئ فهمها واستيعابها؛ ففي المرحلة الأولى راح الكاتب يؤسس لمفهوم "الدراسات ما بعد الكولونيالية" بأنها ما صدر "ما بعد الاستقلال"، حيث يركز الباحثون والدارسون "على التداعيات السياسية والثقافية واللغوية والدينية والأدبية على المجتمعات المستعمرة سابقا، المستقلة حديثا، ويحتفي النقاد بهذا التعريف لأن مجاله محدد زمنيا وإشكالاته المعرفية واضحة إلى حد كبير ، إذ غالبا ما تتعلق باللغة والهوية والمكان والانتماء" (عتيق، 2015، صفحة 229)، ويمكن أن نعتبر أنَّ ما صدر بعد ستينات وسبعينات القرن الماضي يدخل ضمن هذا التحديد.

أما في المرحلة الثانية فيمكن أن نسمي هذه الدراسات بدراسات ما بعد الاستعمار الأوروبي، وهو يشمل المرحلة الاستعمارية الأوروبية على دول آسيا وإفريقيا والتي جاءت بغرض نشر مظاهر الحداثة والحضارة والتمدن والثقافة الأوروبية في الدول المستعمرة، غير أننا نشهد ما خلفته من خراب ودمار جسدته بعض الكتابات الأدبية من الطرفين؛ لذلك فالتحديد الزمني لهذا المفهوم يبدأ من القرن السابع عشر بعد أن استغلت فرنسا وبريطانيا كل الفرص من أجل احتلال أكبر عدد ممكن من دول آسيا وإفريقيا، واستنزاف ثرواتهم الطبيعية والبشرية.

أما بالنسبة للمرحلة الثالثة، فيمكن أن نلخصها بالدراسات التي سعت لكتابة وتوثيق كل ما يشمل "العلاقات الكولونيالية في كل أنحاء المعمورة وعلى امتداد التاريخ بأكمله." (عتيق، 2015، صفحة 229)

وعموما فإنّ المغزى الذي تؤول إليه كل تعريفات "دوغلاس روبنسون" السابقة تصب في كون الكتابات ما بعد الكولونيالية قراءة في عمق التاريخ، من أجل كشف ما حاول المستعمِر تزييفه، وتفكيك كل ما وصلنا من شفرات ورموز صعب على كُتابها الإباحة بها آنذاك، فالعملية إذن رجعية تعتمد على إعادة القراءة والكتابة من جديد.

وهو ما يُعرف بإعادة القراءة وإعادة الكتابة أو الكتابة الرجعية، وهو مصطلح نقدي عُرف في الساحة النقدية مؤخرًا بعد أن راجت الدراسات التي تعمدُّ إلى العودة إلى المؤلفات والكتابات السابقة ومن ثَمة مقاربتها من خلال المناهج النقدية ما بعد الحداثية، أي قراءتها بطريقة نقدية معاصرة، وهو ما حدث مع كل المؤلفات والكتابات التي تناولت أو أشارت إلى الاستعمار بأي شكل من الأشكال، مما شكل لنا في البداية مجموعة من الدراسات، لذلك فإننا لا نجزم منذ البدء أنَّ الخطاب ما بعد الكولونيالي قد تأسس كنظرية، بل عُرف في بدايته كونه مجموعة من الإسهامات والإرهاصات التي شكلت المُنطلق الرئيس لفكرة "نظرية ما بعد الكولونيالية"، والتي لم تخل هي الأخرى من الكثير من المعيقات والمعرقلات، كونها لم تتنصل من موضوع الاستشراق الذي راح النقاد يخلطون بينهما في بادئ الأمر، لاسيما وأنَّ إدوارد سعيد قد جعل عنوان مؤلفه الأشهر "الاستشراق" واجهة للحديث عن "ما بعد الكولونيالية" وهو ما جعل الباحثين والنقاد يقعون في أزمة مصطلحية لم تنته بسهولة.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنّ ارتباطها بحقل السياسة وقيامها على خطاب تشكل دويلات وانتهاء إمبراطوريات جعلها محل جدال في كونها نظرية مستقلة

بذاتها، أم فرع من فروع علم السياسة وحقلا من حقوله، فقد "ترعرعت دراسات ما بعد الاستعمار على كل من انهيار الإمبراطوريات الأوروبية العظمى في أربعينيات القرن العشرين وخمسيناته وستيناته جنبا إلى جنب تداعيات الحرب الباردة وبزوغ العالم الثالث : العبارة التي أطلقها عالم الديموغرافيا الفرنسي "ألفرد سوفي" Alfred souvy عام 1951 ، والتي أشاعها" جان بول سارتر "وما تلا ذلك من بروز الدراسات الثقافية والمناهضة للهيمنة في الجزائر. أما أكاديميا، فنظرية ما بعد الاستعمار أو الخطاب ما بعد الكولونيالي لم تعرف طريقها إلى الوجود إلا في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، ويعد كتاب الأكاديمي الأمريكي والمفكر الحداثي الفلسطيني "إدوارد سعيد" (الاستشراق) . Orientalisme". الذي نشر في 1978م، أحد أهم الأعمال التأسيسية الأولى إن لم نقل الحاسمة في هذا المجال" (الوليد، 2003، صفحة 80).

ولمعرفة الفروق بين النظرية ما بعد الكولونيالية والدراسات ما بعد الكولونيالية وجب علينا تجاوز إشكاليات المفاهيم ومحاولة لملمة الأفكار صوب تحديد مفاهيمي مستقل، ذلك أننا توصلنا إلى فكرة أنّ مضمون (الخطاب ما بعد الكولونيالي) يتمثل في كونه "حقل دراسي يهتم بالموضوع الكولونيالي من شتى الجوانب حيث يطرح مجموعة من القضايا الشائكة للدرس والمعالجة والتفكيك كجدلية الأنا والغير، وثنائية الشرق والغرب، وتجليات الخطاب الاستعماري ودور الاستشراق في تزكية المركزية الغربية قوة وتفوقًا، والإشارة إلى الصراع الفكري والثقافي المضاد للتمركز العقلي الغربي لغة وكتابة، مقصدية وقضية، كما ينشغل خطاب ما بعد الكولونيالية بقضايا العولمة والمضطهدين، والتابعين والعرق، والهوية ، والجنس، والعنصرية، والأنثوية، والمثلية الجنسية ، والمكان والتمثيل، واللغة، والمركزية، والزنوجة، والتبعية الاقتصادية، والمقاومة، والنوع ، والآخر، والإثنية، والتعددية الثقافية." (إبراهيم، 2011، صفحة 169)

إننا هنا أمام حقل معرفي يهتم بمجموعة مختلفة من المجالات الفكرية، والثقافية، والسياسية، وغيرها، ويسلط الضوء على قضايا متنوعة، يتخطى الجانب الأدبي والإبداعي أو الفني، ويستلهم خطاباته من التمثيلات النصية التي أصدرها خطاب المستعمر والتي كانت تستهدف الآخر، وغالبا ما يتم دراستها عبر التمظهرات النصية أو السردية للخطاب ما بعد الكولونيالي، "بالإضافة إلى هذا، فقد اهتم الباحثين بالخطاب ما بعد الكولونيالي بمواضيع أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها تمثلت في الرد بالكتابة على المستعمر، حيث توجهت الشعوب التي كانت واقعة تحت نير الاستعمار سابقا إلى الكتابة المضادة، ومحاولة وضعها في تشكيلات وأنماط محددة، وهي ذات تعالق واضح بقضية اللغة وارتباطها مع موضوع آخر، يتمثل بتفكيك الآثار الثقافية للاستعمار لدى الشعوب المستعمرة." (شهاب، 2013، صفحة 166)

فضلا عمّا سبق ذكره، فإنّ المفهوم الذي يمكننا اعتماده هو أنّ ما بعد الكولونيالية تعد "صحوة فكرية، وثقافية، ورد مقاوم على الكولونيالية بغية إبطالها على مختلف المستويات المادية، والتاريخية، والفكرية، والثقافية، لأنها تنشر توجهاتها وآرائها في العديد من الفنون الأدبية كالمسرحيات، والروايات، والقصائد الشعرية، والأفلام، وهي تعدّ جميعا وعلى اختلافها أثرا نصّيا ثقافيا رافضا ومقاوما لمختلف آثار الاستعمار، فهي بهذا المفهوم تعد إستراتيجية للقراءة ذات حدين: إذ تعمل على كشف الوضع ما بعد الكولونيالي في النصوص من جهة، وفضح تركات ومؤسسات السيطرة الكولونيالية من جهة أخرى" (نادية، 2016، صفحة 25).

3. بين النظرية والتطبيق / الاكتفاء النظري أو التأسيس المنهجي:

لاحظنا في ما تطرقنا إليه سابقا أنّ أهم ركيزة يرتكز عليها الخطاب ما بعد الكولونيالي هي ركيزة المفارقة، مفارقة الأعراف الفكرية والثقافية التي أَلِفها

العالم، والبحث عن ميلاد عالم جديد تكون فيه كل الأطراف متساوية، ويكون فيها الكاتب سيد نصه ونفسه، كاشفا للكل عمَّا شاهده من مرئيات ومنشئا للبناء الخطابي الخاص به، وبهويته، وتاريخه، وماضيه، ومبدعا في تشكيله ثقافة أمته لا تقليد ثقافة الدخيل، ومنها انبثقت وتحررت النظرية التي أبانت عن ضعف وعجز المستعمِر في تناول وطرح ثقافات وآداب وأفكار الشعوب المستعمِرة، والاكتفاء بأفكار مزيفة روجت لها دون أن تستطيع محو المنابع الثقافية الأصلية للشعوب الأصلانية، "فالنظريات الأوروبية ذاتها انبثقت من تقاليد ثقافية معينة أخفتها الأفكار المزيفة "العالمي" ، فظلت ممارسات ما بعد الكولونيالية تطرح للتساؤل على نحو راديكالي نظريات الأسلوب والنوع الأدبي والفروض المتعلقة بالملامح العالمية للغة، فضلا عن الإبستيولوجيات وأنساق القيم.

لقد بدأت نظرية ما بعد الكولونيالية من الحاجة إلى تناول هذه الممارسات المختلفة فقد تطورت النظريات التي تتناول السكان الأهليين Indigenous Theories ، كي تتسع لتشمل الاختلافات داخل مختلف التقاليد الثقافية فضلا عن الرغبة في إجراء مقارنة وصفية للملامح المشتركة بين تلك التقاليد" (أشكروفت، 2006، صفحة 17)

فلم تخب شرارة الأفكار المنتقصة للمستعمرات طوال سنوات استعمارها، وقد نلمس تبدّدها أو خبو بعض ركائزها الفكرية بمرور الزمن وطول الفترة الاستعمارية، إلا أنّ أسطورة الحرية ومطلب التحرر غزا فكر الشعوب ولم يتفكك رغم كل المعاناة التي عايشتها الشعوب، فكانت أقصى أمنياتهم تحرّر خطاباتهم وإسماع صوتهم وإيصال أفكارهم.

إنّ للخطاب ما بعد الكولونيالي حقيقة؛ هويته الخاصة وهي هوية تتشكل أساسا عبر بنية لغته، لكن هذه البنية لا يمنع أن يكون هذا النص نفسه جزء من

بنية خارجية، فهو داخل يتموقع في محيط يستحيل أن يخلو من تأثره به أو تأثيره فيه، إنه بنية منتجة في إطار بنيات ثقافية، واجتماعية، وسياسية، وهو يتفاعل معها ولا يتنصل لها أو يتعالى عنها، بل إنّه يسعى دومًا للتمسك بمقصدية الكاتب، وهو ما يجعله ممكنا للتطبيق ومتاحًا للقراءة.

إننا لا ننكر أنّ نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي قد تكون مستقبلا منهجًا مدعمًا بالكثير من الآليات الإجرائية والوسائل التفكيكية التي تساعد الناقد أو الباحث في قراءة النصوص بالشكل الذي يحيل إليه منهج الدراسات ما بعد الكولونيالية، لكننا في الوقت الحاضر لا نرى غير أنَّ حقيقة "ما بعد الكولونيالية" وماهيتها تكمن في كونها مجرد دراسات انبثقت عنها نظرية قائمة بذاتها، وشاعت في الثقافة العامة وفي مختلف المجالات والميادين، مما مكننا من حصرها وحسرها والإحاطة بماهيتها ونشأتها ودوافع ميلادها وتقدير أثرها، فمن وسط تراث ضخم من أدبيات الانتقاص والهوامش، برزت النظرية ما بعد الكولونيالية وتحررت لتُسمع مطالبها، ورغم اكتشاف كم هائل من الاتجاهات النقدية ما بعد الحداثية ودعوة العديد منها إلى التطبيق والتنظير ومحاولة المهتمين والدارسين تأسيس نظريات بمناهج مثل (الدراسات الثقافية كنظرية في مقابل النقد الثقافي كمنهج) أو (الدراسات النسوية كنظرية في مقابل النقد النسوي كمنهج)، أو الاعتماد المباشر على فكرة المنهجية عبر رسم خطوط عريضة تخص كل اتجاه نقدي معاصر، إلا أنَّنا لا نجد أثرًا لفكرة تأصيل منهج ما بعد كولونيالي رغم التحولات التي شهدها العالم استعماريا وسياسيا وفكريا وتقنيا، وارتباط هذا التحول بالخطاب السائد وتحوره نحو النمط الكولونيالي وانغماسه فيه، ورغم تحول ما يقارب أربعين دولة في العالم نحو الأنظمة الديمقراطية وتحررها السيادي بشكل تام، ما زالت "الكولونيالية" في دول العالم الثالث ـ الدول المستعمَرة سابقا ـ قائمة ومازالت "التسلطية" تعمل من خلال أجهزتها القمعية على صيانة الإذعان الجماعي، وبقي

المشهد السياسي يتميز بطغيان السلوكيات المنعية والرقابية وتأجيل الديمقراطية، فيما تتسارع وتيرة الانفتاح الليبرالي اقتصاديا" (جماعي، 2000، صفحة 113).

وإذا تأملنا واقع كاتب ما بعد الكولونيالية نجد أنَّ نصه لم يتجاوز المحنة، وأنه لا يزال محصورًا داخل مستعمرَة لا تود الانتهاء، لذلك راح يتبنى دور المساءلة، فساءل كل العلوم المنتمية إلى الحقل الكولونيالي أو احتكت به، فنجده استجوب السياسة والتاريخ والمجتمع، واتهم التكنولوجيا والاقتصاد وربما ثروات بلاده في تهميشه وإحساسه بالضعف والذل وسط كل ما يميزّه عن غيره من الآخرين.

وهذا ما يجعل النظرية ما بعد الكولونيالية معطية لا تتوقف عن الإفراز، أي مدّ الساحة النقدية والثقافية ما بعد الحداثية بالكثير من الأفكار والرؤى والمنطلقات، من هذا المنطلق نقول أن خطاب ما بعد الاستعمار هو "خطاب نقدي يتجه نحو تفكيك الخطاب الاستعماري، وإلى إعادة النظر في تاريخ آداب المستعمرات التي واجهت الاستعمار الأوروبي، فإذا كان من شأن الخطاب الاستعماري جعل المناطق المستعمرة خلفية لمسرح تجري عليه أفظع أنواع الممارسات اللاأخلاقية والقرصنة المعتمدة على السلب والنهب والقتل والاقتلاع من الجذور، كما عملت على عزل أهل هذه المناطق عن مجموعاتهم اللغوية، فإن الهدف الأول لخطاب ما بعد الاستعمار بجهوده الكبيرة هو إعادة كتابة تاريخ الحضارة الاستعمارية من وجهة نظر من استُعمِروا، هكذا أصبحت نظرية ما بعد الاستعمار تسمية لنظرية في الدراسات الثقافية والنقد الأدبي، وهي في مجملها لا تنظر إلى الخطاب بوصفه مهمة تاريخية ولكن بوصفه مهمة سياسية؛ وهكذا نكون أمام منهج لا تتوقف فيه القيم الأدبية على جماليات النص فقط، وإنما تصبح مرتبطة بعوامل كثيرة من أهمها العامل السياسي" (إبراهيم، 2011، صفحة 170)

لقد كشف النظرية ما بعد الكولونيالية زيف الكثير من الفرضيات المسبقة وهشاشة أسسها، ومسلماتها غير الحقيقية، فأضحى القارئ أكثر وعيا بالتاريخ

وحقيقة الآداب المهمشة والمرفوضة وصدقها في كثير من المواقع والمرويات، وفهم الدور الحقيقي لهذا الأدب وهدفه النبيل، فقد كسرت هذه النظرية مركزية النص المهيمن الذي مثله ولفترة طويلة الأمد النص الغربي، ولم تعد تعتمده كمرجعية حتمية، أو تحتذي به كأنموذج مثالي من أجل تقليده والعمل بأسلوبه والاقتداء به، فظهر النص اللاذع الذي فضح السلطة الاستعمارية والذي حقق ما عجزت عنه المناهج والنظريات العديدة التي ظهرت وإياه في تلك الفترة من الزمن، وارتبطت أيّما ارتباط بأفكار حداثية هيمنت على المنظومة الثقافية الغربية بالدرجة الأولى ـ لتصلنا بعد ذلك بحلتها العربية المزيفة ـ ، "هذه الأفكار الموغلة في استبعاد الذات الإنسانية وتهميشها أو زحزحتها عن مركزيتها الأنطولوجية، كانت من الأسباب التي أدت إلى التحولات الكبرى التي دفعت إلى التمرد على الشكل التقليدي والقيم الجمالية الكلاسيكية" (صالح، 2013، صفحة 156)، وثارت عن كل المنظومات الفلسفية والنظريات الاجتماعية والنفسية السائدة، وولدّت أنظمة ذاتية فعّلها الوضع الاجتماعي الجديد وهو ما أنتج مناهج ونظريات نقدية لا يمكن لأي كان نكران دورها في محاربة الكولونيالية والقمعية والتعسفية، ودعوتها الصريحة من أجل التحرر المعنوي ـ الفكري والأدبي والثقافي ـ قبل التحرر المادي ـ الجسدي ـ الحقيقي.

وعليه فإنّ الدعوة لاستئصال المنهج عن النظرية لا يبدو مطلبا غريبا في ظل ولادة مشاريع ثقافية ونقدية وتشكلها منهجيا ونظريا، وفي ظل الأفكار التي جسدتها مظاهر الحداثة من تعددية فكرية وانفتاح ثقافي على جلّ الشُّعب والميادين، فقد أضحت المشاريع الفكرية والفلسفية أكثر ليونة وأسهل ممارسة وتفتحًا.

في الموضوع نفسه فإنّ أول من دعا إلى قيام نظرية "ما بعد كولونيالية" قد أبان عن فكرة مشروعه الأصلي دون أن يسعى للتطبيق أو التنظير، ودون أن يغفل عن تهميش جزئية في قراءته وفكرته وأسلوبه، والحقيقة هي أنّه ـ ونقصد هنا إدوارد

سعيد . قد حاول الخروج من هذه الفوضى دون الانحراف عن مبتغاه، فعندما نتأمل خارطة سيره نجده يتأمل ويتمعن في طرق السائرين الذين سلكوا مسلكه ولم يصلوا، أو أنهم وصلوا لكن دون نتيجة مرضية، كما فعل هو، فقد أبان في مؤلفه "الاستشراق" . الذي يعتبر مرجعا مهما في الدراسات ما بعد الكولونيالية . وفي مؤلفات عديدة غيره: (الاستشراق . المفاهيم الغربية، المثقف والسلطة، خارج المكان، خيانة المثقفين، العالم والنص والناقد...)، أنّه ضبط النظرية وأسس لها بالشكل الصحيح، رغم أنّه يقرّ منذ البداية أنَّ كل ما ألفه كان بسبب تأثره بأفكار الكاتب والطبيب النفساني فرانز فانونFrantz Fanon، والفيلسوف والمؤرخ الفرنسي ميشال فوكو Michel Foucault .

4. الردّ بالفكر والمواجهة بالمنطق / إدوارد سعيد مُنَّظر الدراسات ما بعد الكولونيالية:

رغم أنّ الرد بالكتابة هو عنوان لمؤلف "بيل أشكروفت وآخرين" إلا أنّه أصدق تعبير عن وصفِ الخطابات ما بعد الكولونيالية على رغم تنوعها، سواء أ كانت روائية أم نقدية أم شعرية أم مسرحية، وقد حاول المفكر "إدوارد سعيد" التفصيل فيها بشكل مطول في كل دراساته، فهو ينطلقُ في مُنجزه الفكري ببيان عام لنِطاق الاستشراق، مُفتتحاً إياه بمقولة "كارل ماركس": "لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، ولا بُدّ أن يُمثلهم أحد". هذه المقُولة تحمل في عُمقها وجوهرها استقصاءً لكيّان الأنا الشّرقية، وتختزل الكُلّ في الجُزء ألاّ وهو المثال الغربي المُبطن، الذي جيء به كدعوة من أجل الاستيطان وفرد السيطرة.

وعلى الرّغم من أنّ "إدوارد سعيد" ذُو توجه ماركسي، إلاّ أنه انقلب على هذه الرُؤية الدُّونية لأب الماركسيّة بدافع الإنسانيّة وبيّن بطريقة غير مُباشرة عن إمكانيّة تمثيل الشّرقي لنفسه، بل وإظهار تمثُّل الغربي للشّرقي وهو ما نلمسه في الذّات الإدواردية التّي حملت ازدواجية الوجهين.

مُبتدئاً في الرُّكن الأول عن "معرفة الشرقي"، وانحصار صفة "الشرقية" في مهدها بالمسلم، ثمّ التحولات النّاشبة عليها، إذ أخذت تضّم الحضارات التّي انتقلت لها عدوى الإسلام وخاصة الهنديّة والفارسيّة، باعتبارها حضاراتٌ كان لها تأثير وتأثُر مُتبادل، بتمازُجها وتغلغلها مع الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

ولبناء تنظير عام تجريدي عن الشّرق كانّ لا بُدّ بالاستعانة بجُنود الاستشراق لإزالة الغُموض والإبهام على الآخر، "فبدأ الحُجاج المُستشرقون بالتّوافُد من شتّى الأقطار، مُوَّزعين على مناطق الشّرق، فتطرقوا في دراستهم البحثية للأنثربولوجيا، والسّياسة، والدّين، والأخلاق، وعلم الإنسان، وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم ... مُتغلغلين في الألسن المُتبايّنة باللّغات السّنسكريتيّة القديمة، وفقه اللّغة.

كما نبشوا في الحضّارات المتناهيّة القدم، وكلّ هذّا "لتحويل كلّ تفصيل إلى تعميم، وكلّ تعميم إلى قانون ثابت عن طبيعة الشّرق." (سعيد، 2006، صفحة 86)

ويُعطي لنا إدوارد سعيد في خضم ما قاله نماذج حيّة عن تخلف الشعوب المستعمرة، واستغلال الدول الاستعمارية ذلك التخلف، كحملة "نابليون بونابرت" عام 1798م على مصر، والتّي كانّت بمثابة استنفاذ للفكر الشرقي لتتحكم في دماء الأجيّال القادمة، من خلال كتاب "وصف مصر"، والذي عرفت من خلاله عقليّة الشّرقي، وبنّت على أساسه المُضّاد الحيويّ للتحكم والهيمنة عليه. أو من خلال العودة إلى الاستعمار الفرنسي للجزائر والذي ركز منذ البداية على طمس هويته الدينية واللغوية، وإعادة برمجته بالطريقة الفرنسية عن طريق تدمير المعالم الدينية ومحو اللغة العربية والأمازيغية، ونشر الحقد والكراهية بين أبناء الشعب الواحد بدسائس تُفرق بين أبناء الدم وتُخرب العلاقات وتهدمها.

وما يُقرّ للتفكيك الإدواردي أنّه بينّ لنا أنّ البحث العلمي الاستشراقيّ المُمنهج، هدفه ليس السّيطرة الآنيّة بل بناء حصن منيع لمُستقبل الأفكار وتشريع السُّلطة

المعرفيّة، وكأنّه يقول لنا ـ كعرب ـ يجب عدم ترك ثغرة تاريخيّة لينجر وراءها العربي، ويُعيد إثبات ذاته العربيّة وهويته الإسلاميّة؛ وهو يُرجع أسباب التأخر الفكري للعرب في افتقاره ملكة المنطق التي يتملكها الغربي ويتقن استعمالها بشدّة.

فضلا عن ذلّك، فإنّ ما يثمن عمل "إدوارد سعيد"، هو ما لعبته الجُغرافيا الخياليّة من تشويه في الذّهن في المُتخيّل الغربي والشّرقي، وكيف استطاعت التّصورات الأنماطيّة التّي تكاثفت في المادّة النّصية الأدبيّة المبثوثة من أن تترسخ في الأعمال الكلاسيكيّة "كأنشودة رولان"، "مسرحية عطيل"، "في انتظار غودو" وغيرها، "فهذّا التّنويم المغناطيسيّ للفكر الشّرقي الجمعي، خلق عدسات غربيّة مُزيّفة في عيون الذّوات الشّرقيّة مبعدا إيّاهم عن العين الحقيقيّة والرّؤيّة الأصوليّة، ليبقوا مجرد تابع خانع، ويصنع ضباب الانبهار بالمثال الأعلى للغربيّ، في هالّة ضبابيّة تعرج بهم للانسيّاق دون وعي، فهم مخدرين!" (سعيد، 2006، صفحة 98)

وعلى الرّغم ممّا أتّى به "إدوارد سعيد" من تعريّة لواقع السّياسة الاستشراقيّة الخبيثة والكشف عن شُموليّتها، والرد على المؤسسة الإمبريالية في عُقر دارها، وكونه الرجل المسيحي فقد دافع عن الحضّارة العربيّة الإسلاميّة بمنطق الإنسانيّ أولا ثمّ الباحث الموضوعيّ الجادّ ثانيًّا، فقد ظل يدعو العرب للاهتمام بكتبه بشكل أكبر وحثّهم على ترجمتها جميعها لأنّها في صالحهم، و في صالح ثقافتهم وكينونتهم ووجودهم، لكنه ظلّ يشير أيضًا أنّها لم تكن أبدًا عداءً للغرب، كما فهمه البعض وليس دفاع عن الإسلام إنما هو الحق الذي أراد أن يبينه ويظهره.

فهو يؤكد بعدم وجود فرق بين كلمتي (الشرق والغرب) ، لأن كلا المفردتين لا تقومان على أسس علمية تراعي التاريخ و التطور، فالتوصيف الذي أعطوه للشرق

خاطئ مبني على أسس زائفة وحقائق مغلوطة، والصورة التي ألحقوها بالغرب أيضا لا محل لها من الحقيقة.

وبهذا فإنَّ ردّ إدوارد سعيد بالعقل والمنطق فكك مخططات الاستعمار، وأبرز حقارة الأفكار الغربية والمعتقدات التي تحملها العقول الغربية المريضة المناهضة للشرق والداعية إلى طمسه واستغلاله واستنزاف مواهبه وخيراته، فبعد أن درس لسنوات طويلة عقلية الغربي فهمَ مقاصدها، ونظر إلى الشرق من الزاوية المقابلة ثم أتقن اللهجة التي يمارسها الغرب في تبرير عقدهم، وراح يواجههم بالفكر والمنطق ويتخطى كل ما ألَّفوه وكتبوه عن ماضيّهم المّمجد المليء بالبطولات والتّضحيات.

وأبرز لهم وجههم الاستعماري المليء بالعيوب والزلات والفضائح الإجرامية التي يندى لها الجبين، فهو يقرأ التاريخ من الجهتين ويتفحص النصوص بشكل جيد حتى كشف عن العلاقة غير السوية التي جمعت الشرق بالغرب، وهنا لا يمكننا تجاهل ذكر أهم علّمين من أعلّام الدراسات ما بعد الكولونيالية، والّذيّن ساهما مع سعيد في وضع أسّس النظرية ما بعد الكولونيالية : المنظرين والناقدين الهنديين (الناقدة غياتري شاكرا فورتي سبيفاك (**Gayatri Chakravory Spivak**) والناقد هومي ك بابا **Homi k. Bhabha**)، فهؤلاء الأسماء الثلاثة هم أول من أرسوا دعائم هذه النظرية، وأول من دعوا إلى قيام خطاب ما بعد كولونيالي بشكل واضح وصريح، وأول من بحثوا في علاقة الشرق بالغرب من خلال حيثيات الزمن ومخلفات التاريخ، وهم أيضا أول من كشف زيف وكذب المستشرقين الذين دنّسوا صورة الإنسان الشرقي وقدّسوا صورة الإنسان الغربي، وعملوا على تحرير الشرق من عقدة الغرب، فكان الهدف الرئيس من كتاباتهم وردودهم وقراءاتهم تخليص المثقفين الشرقيين من أغلال الأنظمة الغربية، والتي تم اعتبارها استشراق من نوع جديد، وذلك من أجل إنتاج قراءات ودراسات تحمل بصمة

شرقية خاصة متخلصة من كل ما يمتّ بصلة للفلسفات والنظريات والمناهج والاتجاهات الغربية، وهو ما لم يحدث رغم كل التوصيات.

5. خاتمة:

بعد قيامنا بجولة في رحاب الدراسات ما بعد الكولونيالية، وتتبع أهم ما تعلق بها منذ ظهورها لأول مرة، توصلنا لمجموعة من النتائج، يمكننا أن نلخصها في النقاط التالية:

- انتصرت "الدراسات ما بعد الكولونيالية" بعد أن تقدمت بخطوات، أثبتت من خلالها أنّها **نظرية جديرة** بأن تندرج ضمن النظريات والحقول المعرفية التي أسست وتؤسس لخطاب أيديولوجي حضاري، يسعى لتقدم الأمم والشعوب.
- تكمن أهمية النظرية ما بعد الكولونيالية في كونها تمخضت عن أهداف نبيلة، فقد جاءت بعد أن سعى روادها ومؤسسوها إلى تفكيك خطابات القوة المركزية وكشف زيفها، من أجل التخلص من سيطرة وسطوة الخطاب الاستعماري الذي عمد إلى كتابة التاريخ بالشكل الذي يناسبه ويمجّده.
- تشهد الدراسات التي تهتم بالنظرية ما بعد الكولونيالية تقدما ملحوظا من قبل النقاد والمهتمين العرب، بعد أن غيبتها الساحة النقدية العربية واكتفت بالترجمة، والأخذ من الغرب، رغم أنّ أول من أثار فكرة النظرية هو الكاتب العربي الأصل الفلسطيني "إدوارد سعيد"، إلا أننا لاحظنا عزوفا من الباحثين العرب حول نظرية ما بعد الكولونيالية، وربما يعود ذلك لأن معظم الدارسين الذين جاؤوا بعد "سعيد" ركزوا على الخطاب ما بعد الكولونيالي في الهند ودول غرب إفريقيا وآسيا الشرقية، مثلما نجدّه في منجزات "بيل أشكروفت"

و"غاريث غريفيث" و"هيلين تيفين" في دراساتهم التي ركزت بشكل كبير على آداب المستعمرات البريطانية "الأنجلوفونية" (الهند، دول إفريقيا، دول آسيا الشرقية)، والتي تجاوزت الآداب الفرانكفونية التي تضم معظم الكتابات العربية ذات الطابع الكولونيالي مثلما نجد في: الجزائر، تونس، المغرب، لبنان.

- إنَّ أساس النظرية ينطلق من كونه يهتم بتحليل العلاقات القائمة بين المستعمِر والمستعمَر، وما يجمع بينهما من كتابات خلدّت هيمنة الطرف الأقوى ومطالبة الطرف الآخر بحريته وحقه في أرضه والعيش بسلام، من أجل ذلك تحصّن النقاد وتمسكوا بفكرة النظرية وراحوا يعملون على استقلاليتها وقيامها بأهدافها وتمسكها بمبادئها.
- تُعتبر نظرية ما بعد الكولونيالية من النظريات التي تتكئ على مجموعة واسعة من العلوم: كعلم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، والفلسفة، والسياسة، والتاريخ، والأدب، وتنهل من كثير من المناهج النقدية والمجالات الوجودية، كما أنّها تتقاسم وتتقاطع في كثير من النقاط مع نظريات ودراسات معاصرة وما بعد حداثية متعددة، كالدراسات النسوية، والنقد الثقافي، والدراسات الإثنية، وغيرها. وهو ما يساعدها من أجل استمرارها وتحررها.

6. قائمة المراجع:

إدوارد سعيد: الاستشراق/ المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة : محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2006م

بيل أشكروفت، جاريت غريفيت، هيلين تيفين: الرد بالكتابة/ النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2006م.

بوحاريش نادية: النظرية ما بعد الكولونيالية والتلقي العربي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة والأدب العربي، تخصص: نقد ودراسات ثقافية، كلية الآداب واللغات، جامعة الصديق بن يحيى . جيجل . ، الجزائر، الموسم الجامعي: 2016/2015م، مخطوط

تأليف جماعي: إشكالية السلطة في الفكر العربي الإسلامي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، لبنان، ط 1، 2000م

حفناوي بعلي: مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن / المنطلقات، المرجعيات، المنهجيات، الدار العربية للعلوم . ناشرون . بيروت، لبنان، ط 1، 1428 هـ/2007م

خالد سليمان: في أدب ونقد ما بعد الكولونيالية، مجلة علامات في النقد، م 14، ج 54، النادي الأدبي الثقافي ، جدة، السعودية، ديسمبر 2004م، شوال 1425هـ

دوغلاس روبنسون: الترجمة والإمبراطورية / نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، ترجمة: ثائر الديب، حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط 1، 2005م

رامي أبو شهاب: الرسيس والمخاتلة / خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، النظرية والتطبيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2013م

رزان محمود إبراهيم: المؤثر الاستعماري في الكتابة الأدبية/ إيقاعات متعاكسة تفكيكية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، مج 29، عدد 116، دار المنظومة، الكويت، 2011م

مديحة عتيق: ما بعد الكولونيالية: مفهومها، أعلامها، أطروحاتها، مجلة دراسات وأبحاث، مج 7، عدد 18، تصدر عن جامعة زيان عاشور . الجلفة . ، مارس 2015م

هويدا صالح: الصورة الروائية للمثقف، مجلة العربي، تصدر عن وزارة الإعلام بدولة الكويت، عدد 657، أغسطس 2013م

يحيى بن الوليد: خطاب ما بعد الاستعمار/ الخطاب ما بعد الكولونيالي في الأدب والنظرية النقدية، مجلة الكرمل، عدد 78، ديسمبر 2003م